سجون بغداد

زمن العباسيين

للأستاذ صلاح الدين المنجد

— ٦ —

طرائف مختارة من أدب السجون

— ١ —

كتب يحيى بن خالد البرمكي إلى الرشيد من الحبس :

« ... إلى أمير المؤمنين ، من عبد أوبقته ذنوبه ، وخذله شقيقه ، ورفضه صديقه ، وزال به الزمان ، ونزل به الحدثان ، وحلّ به البلاء بعد الرخاء ، واقترش السخط بعد الرضا ، واكتحل السهود ، وفقد الهجود ؛ ساعته شهر ، وليلته دهر . قد عاين الموت ، وشارف الفوت : جزعاً يا أمير المؤمنين قدّمني الله قبلك ، من موجدتك ، وأسفاً على ما حُرمتُه من قربك . لا على شيء من المواهب ؛ لأن الأهل والمال إنما كانا لك ، وعارية في يدي منك . والعارية لا بد مردودة . فأما ما اقتصصته من ولدي فبذنبه ، وعاقبته بجرمه وجريرته على نفسه ؛ فإنما كان عبداً من عبيدك لا أخاف عليك الخطأ في أمره . ولا أن تكون تجاوزت به فوق ما كان أهله ، ولا كان مع ذلك بقاؤه أحب إليّ من مواقفتك . فتذكر يا أمير المؤمنين ، جعلني الله فداك ، وحجب عني فقدك ، كبر سني ، وضعف قوتي ، وارحم شيبتي ، وهب لي رضاك عني ، ولتصل إلى بغفران ذنبي . فمن مثلي يا أمير المؤمنين الزلل ، ومن مثلك الإقالة . ولست أعتذر إليك إلا بما تحب الإقرار به حتى ترضى . فإذا رضيت رجوت أن يظهر لك من أمري ، وبراءة ساحتي ، ما لا يتعاظمك معه ما منيت به من رأفتك بي وعفوك عني ، ورحمتك لي . زاد الله عمرك يا أمير المؤمنين ، وقدّمني للموت قبلك :

قل للخليفة ذي الصنا ... ئع والعطايا الفاشيه
وابن الخلائف من قري ... ش والملوك الماديه
ملك الملوك وخير مَنْ ... ساس الأمور الماضيه
إن البرامكة الذين ... رموا لديك بداهيه
عمتهم لك سخطة ... لم تُبقِ منهم باقيه
فكأنهم مما بهم ، ... أعجاز نخل خاويه
صفر الوجوه عليهمُ ... خلع المذلّة باديه
متفرقين مشتتين (م) بكل أرض قاصيه
بعد الإمارة والوزا ... رة والأمور السامية
ومنازلٍ كانوا بها ... فوق المنازل عاليه
أضحوا وجلّ مناهمُ ... منك الرضا والعافيه
فإذا رضيت فإن أنفسهم بحكمك ، راضيه
فاليوم قد سلبَ الزما ... ن كرامتي وبهائيه
واليوم قد ألقى الزما ... ن جرانه بفنائيه
يا من يود لي الردى ... يكفيك ويحك ما بيه
يكفيك ما أبصرت من ... ذلّي ، وذلّ مكانيه
يكفيك أني مستباح (م) معشري ونسائيه
ورزئت مالي كله ... وفدى الخليفة ماليه
إن كان لا يُرضيك إلا (م) أن أذوق حِمامية
فلقد رأيتُ الموت (م) من قبل الممات علانيه
وجمعتُ أعظم جمعةٍ ... وفنيتُ قبل فنائيه
ولبست أثواب الذليـ ... ـل ولم تكن بلباسيه
وعطيتُ في سخط الإما (م) م على رفيع بنائيه
فانظر بعينك هل ترى ... إلا قصوراً خاليه
وذخائراً مقسومة (م) قُسِّمْنَ قبل مماتيه
وحرائراً من بين صا ... رخة عليّ وباكيه
ونوادباً ينددْنني ... تحت الدجى بكنائيه
يا بابا عليّ البرمكيّ ! ... فما أجبتَ الداعيه
وبكاؤهن وقد سمـ ... ـتُ مقلقلَ أحشائيه
أخليفة الله الرضا ... لا تشمتَنْ أعدائيه
اذكر عهودك لي وما ... أعطيتني بوفائيه
اذكر مقاساتي الأمو ... ر وخدمتي وعنائيه
ارحم ، جعلتُ لك الفدا ... كِبري وشدة حاليه
ارحم أخاك الفضلَ ... والباقين من أولاديه

فلقد دعوك ، وقد دعو ... تُكَ إن سمعتَ دُعائيه
أخليفة الرحمن إنك ... لو رأيت بناتيه
وبكاء فاطمة الكئيبة ... والمدامع جاريه
ومقالها بتوجع ... وا شقوتا وشقائيه !
مَنْ لى ، ولا مَنْ لى ... وقد قصم الزمان قناتيه
وعدمتُ صفو معيشتى ... وتغيّرت حالاتيه
من لى وقد غضب الزمان ... على جميع رجاليه
يا عطفة الملك الرضا ... عودى علينا ثانيه (١)

— ٢ —

وقال مسجون (٢) :

إلى الله فيما نابنا نؤثر الشكوى
فنى يده كشف الضرورة والبلوى
خرجنا من الدنيا ونحن من اهلها
فلسنا بين الأحياء فيها ولا الموتى
إذا دخل السجان يوماً لحاجة ... عجبنا ، وقلنا جاء هذا من الدنيا
ونفرح بالرؤيا ، فجلُّ حديثنا
إذا نحن أصبحنا الحديث عن الرؤيا
فإن حسنت كان بطيئاً مجيئها
وإن قبحت لم تنتظر وأتت عجلى (٣)

— ٣ —

قال على بن الجهم من قصيدة يذكر محاسن الحبس (٤) :

قالوا حبست فقلت ليس بضائرى ... حبسى وأى مهند لا يغمد
أو ما رأيت الليث يحمى غيله ... كبراً ، وأوباش السباع تردد
والنار فى أحجارها مخبوءة ... لا تصطلى إن لم تثرها الأزند
والبدر يدركه السرار فتنجلى ... أيامه ، وكأنه متجدد ،
غيرُ الليالى بادئات عوّدٌ ... والمال عارية يفاد ويفتقد
ولكل حال معقب ولربما ، ... أجلى لك المكروه عما تحمد
لا يوئسنك من تفرج كربة ... خطب أتاك به الزمان الأنكد
كم من عليل قد تخطاه الردى ... فنجا ومات طبيبه والعوّد
سبراً فإن اليوم يتبعه غد ... ويد الخليفة لا تطاولها يد
والحبس ما لم تغشه لدنية ... ترى فنعم المنزل المتورد
لو لم يكن فى الحبس إلا أنه ... لا يستذلك بالحجاب الأعبد
بيت يجدد للكريم كرامة ... ويزارفيه، ولا يزور ويحمد (١)

— ٤ —

فعارضه عاصم بن محمد الكاتب لما حبس وقال :

قالوا حبست فقلت خطب أنكد ... أنحى على به الزمان الرصد
لو كنت حراً كان سربى مطلقاً ... ما كنت أوخذ عنوة وأقيد
أو كنت كالسيف المهند لم أكن ... وقت الشديدة والكريهة أغمد
أو كنت كالليث الهصور لما رعت ... فىّ الذئاب وجذوتى تتوقد
من قال إن الحبس بيت كرامة ... فكابر فى قوله متجلد
ما الحبس إلا بيت كل مهانة ... ومذلة ومكاره لا تنفد
إن زارنى فيه العدو فشامت ... يبدى التوجع تارة ويفند
أوزارنى فيه الصديق فوجع ... يذرى الدموع بزفرة تتردد
يكفيك أن الحبس بيت لا ترى ... أحداً عليه من الخلائق يحسد
عشنا بخير برهة فكبابنا ... ريب الزمان وصرفه المتردد
فى مطبق فيه النهار مشاكل ... لليل ، والظلمات فيه سرمد
تمضى الليالى لا أذوق لرقده ... طعماً، فكيف حياة من لا يرقد
فتقول لى عينى إلى كم أسهرت ... ويقول لى قلبى إلى كم أكمد
وغذاى بعد الصوم ماء مفرد ... كم عيش من يغذوه ماء مفرد
وإذا نهضت إلى الصلاة تهجداً ... جذبت قيودى ركبتى فأسجد
فإلى متى هذا الشقاء مؤكد ... وإلى متى هذا البلاء مجدد (٢)

(يتبع)

صلاح الدين المنجد

---

(١) المحاسن والمساوىء للبيهقى ص ٥٧٥

(٢) نسبها للسعودى ٢ـ٢٩٥ إلى الفضل بن يحيى ؛ ونسبها الجاحظ فى المحاسن والأضداد إلى غيره .

(٣) المحاسن والمساوىء ٥٨١ .

(٤) فى الطائف والظرائف ص١١٩ : قال الثعالبى : وهذه القصيدة من أحسن ماقيل فى السجن .

(١) المحاسن والمساوىء للبيهقى ٥٧٨ ، المحاسن الأضداد للجاحظ ٢٨ ، مروج الذهب ٢ـ٣٨٧ .

(٢) المحاسن والمساوىء ٥٨٠ ، المحاسن والأضداد ٢٩ .